العلوم والعلماء... في عهد جائحة كوفيد-Covid-19

أ.د الغالي أحرشاو - كاتب وسيكولوجي مغربي
جامعة فاس – المغرب
aharchaou.rhali@gmail.com

نبتغي من خلال هذه المساهمة مساءلة مكانة العلوم ودور العلماء في التعامل مع ما يعيشه العالم من تداعيات صحية ونفسية مؤثرة ومن انعكاسات اجتماعية واقتصادية رهيبة نتيجة جائحة كوفيد-19. فغايتنا الكشف عن معالم تلك المكانة وعن مقومات ذلك الدور بخصوص أساليب التعامل مع تلك الجائحة، استطلاعا وفهما وتفسيرا وتدبيرا، من خلال استحضار جملة من الحقائق والوقائع التي تقعِّد منظومة العلوم والعلماء، واستنطاق عينة من القضايا المرتبطة بالموضوع المطروح عالميا ووطنيا. لكن قبل ذلك، يستحسن بنا الاستهلال بمقدمتين إثنتين:

نبتغي من خلال هذه المساهمة مساءلة مكانة العلوم ودور العلماء في التعامل مع ما يعيشه العالم من تداعيات صحية ونفسية مؤثرة ومن انعكاسات اجتماعية واقتصادية رهيبة نتيجة جائحة كوفيد-19.

– حيث إن العلم والبحث العلمي ليس حكرا على دول بعينها، فالأكيد أن دورنا في المغرب لا يجب أن يقتصر في مواجهة هذا الوباء على الانتظارية والاتكالية، بل صار من الواجب الانخراط في مشوار البحث بهدف الخلق والإبداع والابتكار. وهذا أمر بدأنا نلمس بعض بشائره ونجني بعض ثماره من خلال ما أصبحت بعض الكفاءات المغربية المتمكنة من ناصية العلم والبحث العلمي تساهم به من اختراعات وابتكارات قابلة للتوظيف في مواجهة التداعيات الصحية الجسمية والنفسية لذلك الوباء.

إن العلم والبحث العلمي ليس حكرا على دول بعينها، فالأكيد أن دورنا في المغرب لا يجب أن يقتصر في مواجهة هذا الوباء على الانتظارية والاتكالية، بل صار من الواجب الانخراط في مشوار البحث بهدف الخلق والإبداع والابتكار.

– الراجح أنه لم يعد من المقبول المفاضلة في البحث العلمي بين ما هو خاص بعلوم الطبيعة وما هو خاص بعلوم الإنسان، لأن غايتهما معا تصب في تحقيق رفاه الإنسان ورقيه من خلال خدمة التنمية الشاملة. فأمر التمييز بينهما لا يعدو أن يكون إلا في الشكل والدرجة. وخير دليل آني على أن العلاقة بين هذين البعدين هي علاقة تفاعل وتكامل وليست علاقة تفاضل وتباين، هي أن مخرجات وتطبيقات كليهما صارت مطلوبة وضرورية في التعامل مع الجائحة الحالية، إن على مستوى التجهيزات والطواقم والتدخلات الطبية، أو على مستوى مساهمات وتدخلات الأخصائيين في علوم النفس والطب النفسي. وهذه مسألة سنعود إليها في أحد محاور هذا المقال.

الراجح أنه لم يعد من المقبول المفاضلة في البحث العلمي بين ما هو خاص بعلوم الطبيعة وما هو خاص بعلوم الإنسان، لأن غايتهما معا تصب في تحقيق رفاه الإنسان ورقيه من خلال خدمة التنمية الشاملة.

جائحة كوفيد-19: الامتحان العسير للعلوم والعلماء

في الواقع كثيرا ما توقظ أزمات الحاضر كوارث الماضي التي كان يعتقد أنها طويت ودفنت إلى الأبد في الذاكرة الجماعية. فبعدما أصبح فيروس كوفيد-19 جائحة عالمية، صار الكثير منا يقوم بحفريات في تاريخ ذاكرة الأوبئة علَّه يعثر فيها على ما يشفي الغليل ويبدد الشكوك التي حلت بالإنسانية جمعاء نتيجة كونية هذا الوباء الذي كما جاء في مقال سابق لي نشرته هيسبريس خلال شهر أبريل 2020 "...إذا كان تفشي هذا الوباء قد كشف عن نقاط ضعف كبيرة في الاستجابة العالمية لمواجهته بالعلاج واللقاح اللازمين، فالأكيد أن الأوبئة المختلفة التي عرفها التاريخ البشري مثل الطاعون والموت الأسود والجدري والكوليرا والإنفوانزا الإسبانية وغيرها، قد غيرت مجرى العالم وحصدت أرواح الملايين من ساكنته، وأثرت في حضاراته وثقافاته المتعاقبة....وهذا أمر يصدق على الوباء الحالي الذي عَوْلَمَ العالم من جديد ليحوله من قرية صغيرة إلى سجن كوني كبير بفعل العزل الصحي، وذلك في انتظار الخلاص بحدوث معجزة قريبة في مجال اكتشاف علاج منتظر أو صناعة لقاح مرتقب.."(أحرشاو، 2020 أ).

كثيرا ما توقظ أزمات الحاضر كوارث الماضي التي كان يعتقد أنها طويت ودفنت إلى الأبد في الذاكرة الجماعية.

وهذا أمر يصدق على الوباء الحالي الذي عَوْلَمَ العالم من جديد ليحوله من قرية صغيرة إلى سجن كوني كبير بفعل العزل الصحي، وذلك في انتظار الخلاص بحدوث معجزة قريبة في مجال اكتشاف علاج منتظر أو صناعة لقاح مرتقب.."

بالاحتكام إلى منطق العلم وضوابطه، فالراجح أنه لم يسبق للعلماء التنبؤ باحتمال وقوع وباء مدمر بهذا الحجم والمستوى وبهذه السرعة والحدة، رغم كون العالم يعيش منذ سنوات عصر ازدهار الاكتشافات الميكروبيولوجية والثورات الرقمية التنبؤية والذكاءات الاصطناعية الاستشرافية. إن ما هو حاصل ويحصل، يعتبر بحق امتحانا عسيرا لمنظومة العلم والعلماء، واختبارا صعبا لذكاء الإنسان وكفاءته، وزعزعة قوية لمنظومة القيم والنظام الاجتماعي. فليس من باب المبالغة القول إن الجائحة الحالية تشكل أشد صدمات عصر العولمة الحديث. فالفيروس الكامن وراءها يتجاهل ويتحدى مختلف الأجناس وشتى الحدود. فهو يهوى السفر والترحال بدون جواز عبر مختلف وسائل النقل البرية والبحرية والجوية وحتى الهوائية ليحل ضيفا سريع الانتشار والعدوى وسط أكثر ما يمكن من ساكنة أغلب أقطار المعمور. فمثلما سبق لي شخصيا التنصيص على ذلك، فَوَاهِمٌ من يعتقد بأن العالم سيعود بعد انطفاء وتلاشي هذه الجائحة إلى وضعه السابق. وخاطئ من يظن بأن عناصر الإيمان، العقل، العلم، التعلم، العمل، القيم، التقدم، كمقومات جوهرية لهذا العالم ستبقى هي نفسها. فكل هذه المقومات وسواها ستعرف تغيرات وتحولات، قوامها ترسيم وتأثيث خارطة جديدة لعالم جديد تخترقه طولًا وعرضًا تداعيات رهاب هذه الجائحة التي ساوت بين جميع البشر. فلا فضل لأبيض على أسود، ولا لعجمي على عربي، ولا لمسيحي على مسلم، ولا لغني على فقير إلا بحكمة العقل وعمق الإيمان وتوازن النفس ووفرة المناعة. فالجميع أضحى يعيش نفس نوبات الخوف والهلع والقلق، إلى حد أن حوالي الثمانية مليارات المكونة لمجموع الساكنة المنتشرة على كوكب الأرض، أصبحت في أكثر من نصف تعدادها رهينة سجن كوني تحكمه

لم يسبق للعلماء التنبؤ باحتمال وقوع وباء مدمر بهذا الحجم والمستوى وبهذه السرعة والحدة، رغم كون العالم يعيش منذ سنوات عصر ازدهار الاكتشافات الميكروبيولوجية والثورات الرقمية التنبؤية والذكاءات الاصطناعية الاستشرافية.

إن ما هو حاصل ويحصل، يعتبر بحق امتحانا عسيرا لمنظومة العلم والعلماء، واختبارا صعبا لذكاء الإنسان وكفاءته، وزعزعة قوية لمنظومة القيم والنظام الاجتماعي.

إن الجائحة الحالية تشكل أشد صدمات عصر العولمة

عولمة رهاب هذه الجائحة (أحرشاو،2020 ب).

إذن فبعدما كان جزء مهم من العالم ينظر إلى العلوم بوصفها سجلا للحقائق المثبتة التي لا تقبل التشكيك أو التَّفنيد، اتضح بشكل فجائي أن ممتهني هذه العلوم وخصوصا في ميادين الطب والصحة عامة تخترقهم بعض الاختلافات بخصوص أسلوب التعامل مع فيروس كورونا، وقاية واحترازا، تشخيصا ودواء، علاجا ولقاحا. وهي الاختلافات التي زَرَعَتْ بذور الشك في نفوس وأذهان كثير من الشرائح والفئات الاجتماعية الهشة اقتصاديا وثقافيا وعلميا من ساكنة العالم. لكن تلك الشكوك التي تقف وراءها عوامل عدم الإلمام بمنطق العلم والخوف الناجم عن صدمة ما هو حاصل، لا يمكنها أن تصمد أمام منسوب الثقة العالية في تلك العلوم التي جرت العادة على أن استمراريتها وتطوراتها مشروطة بتعدد الرؤى والمقاربات، وتنوع النزعات والبراديغمات، واحتدام الجدالات والسجالات، والمراوحة بين الاتصال والانفصال وبين التصديق والتفنيد. فمثل هذه المقومات والتمظهرات التي تتميز بها سيرورة العلوم عامة، كانت ولا تزال تشكل حسب تصورات إيبستمولوجيا العلوم، الطاقة المغذية لتطورها وتجددها عبر العصور والأزمنة (Edgar, 2020 a).

لذا وبعيدا عن مختلف الشكوك التي قد تتسبب فيها كثرة التأويلات والقراءات غير المعللة علميا لحد الآن بخصوص مسببات ودوافع ظهور وتفشي هذا الفيروس الفتاك؛ حيث يبقى السؤال مطروحا حول مصدره الحقيقي: هل هو نتيجة للطبيعة؟ أم لتلاعب إنساني مدبر؟ أم لخطأ مخبري تلقائي؟، وبعيدا عن الممارسات الخرافية والتنجيمات الغيبية التي يحترفها كثير من الدعاة والدجالين خلال الشدائد والأزمات، نشير إلى أن العلوم والمعارف بمختلف تخصصاتها كانت وستبقى حقولا معرفية خصبة للتداول والسجال والاختلاف والمعاناة، بحثا عن الحقيقة التواقة أولا وقبل كل شيء إلى خدمة الإنسان وإرضاء حاجاته الواقعية المقبولة، وليس إشباعا لنزواته النرجسية الشاذة ولا يقينياته الطائشة الوهمية، ولا تحقيقا لمطامحه في الهيمنة والسيطرة التي قد تجلب عليه وعلى العالم بأكمله الدمار والخراب. فوثوقية العلم لا يجب أن تشرطها لا أوهام الخيال العلمي، ولا تخيلات التفكير الخرافي، ولا تنبؤات التنجيم الغيبي، بل إن يقينيته النسبية، وليست المطلقة كما يعتقد الكثيرون، مشروطة أولا وأخيرا بمستوى واقعية مخرجاته ونجاعة نتائجه في خدمة الإنسان في علاقته بوجوده الذاتي المحلي وبوجوده الكوكبي الكوني (Edgar, 2020 b).

جائحة كوفيد-19 بين التفسيرين العلمي الغيبي

إذا كان أحد أهداف العلم يتلخص في التفسير العلمي الذي يجعلنا ندرك ونفهم العالم الواقعي بشكل أفضل، فإن أهم الشروط الناظمة لذلك التفسير تتلخص في غايات قوامها: أولا الموضوعية والحياد في تشخيص العلاقات القائمة بين الظواهر الطبيعية والإنسانية والاجتماعية، وثانيا التمكن من معارف الواقع الدقيقة والقابلة للتنظيم والتفسير، ثم ثالثا الأنشطة والوظائف المهنية التي يمارسها علماء الحقول المعرفية الطبيعية والإنسانية علي حد سواء (أحرشاو، 2017).

وإذا كانت خاصيات الموضوعية والدقة والتنظيم والتفسير والاستمرارية والتقويم والممارسة المهنية تشكل العناصر الحاكمة للمعارف العلمية، فإن المعارف الساذجة المتشبعة بالحدوس المشتركة والعادات الشعبية والأساطير الخرافية، غالبا ما يقبلها الفرد كما هي دون أي تقييم لمحتوياتها ولتقنيات إنتاجها. فهي عادة ما تتميز بنزعة التجذر والمقاومة والاستمرار حتى وإن كانت وقائع الملاحظة تكذبها أو تشكك فيها، على عكس المعارف العلمية التي وإن كانت تتميز بالشمولية والاستمرارية فإن نزعاتها ونظرياتها وبراديغماتها

الحديث.

فَوَاهِمٌ من يعتقد بأن العالم سيعود بعد انطفاء وتلاشي هذه الجائحة إلى وضعه السابق.

خاطئ من يظن بأن عناصر الإيمان، العقل، العلم، التعلم، العمل، القيم، التقدم، كمقومات جوهرية لهذا العالم ستبقى هي نفسها.

كل هذه المقومات وسواها ستعرف تغيرات وتحولات، قوامها ترسيم وتأثيث خارطة جديدة لعالم جديد تخترقه طولًا وعرضًا تداعيات رهاب هذه الجائحة التي ساوت بين جميع البشر.

لا فضل لأبيض على أسود، ولا لعجمي على عربي، ولا لمسيحي على مسلم، ولا لغني على فقير إلا بحكمة العقل وعمق الإيمان وتوازن النفس ووفرة المناعة

بعدما كان جزء مهم من العالم ينظر إلى العلوم بوصفها سجلا للحقائق المثبتة التي لا تقبل التشكيك أو التَّفنيد، اتضح بشكل فجائي أن ممتهني هذه العلوم وخصوصا في ميادين الطب والصحة عامة تخترقهم بعض الاختلافات بخصوص أسلوب التعامل مع فيروس كورونا، وقاية واحترازا، تشخيصا ودواء، علاجا ولقاحا

يبقى السؤال مطروحا حول مصدره الحقيقي: هل هو نتيجة للطبيعة؟ أم لتلاعب إنساني مدبر؟ أم لخطأ مخبري تلقائي؟

تشكل على الدوام مواد ومواضيع للتأمل والتقييم إما بهدف التطوير والتجويد وإما بغرض القطيعة والتجاوز (أحرشاو، 2017).

تبعا لهذا التحديد، نشير إلى أنه خلال الكوارث والأوبئة المفاجئة غالبا ما يحصل ارتباك خطير بين الخطاب المبرر بالتفسيرات العلمية والخطاب المعلل بالتأويلات الغيبية. فمتى تعذر شرح ما لا يمكن تفسيره بالعلم والمنطق، إلا وتم التوسل في شرحه (خصوصا للعامة من الناس) إلى الغيب والخرافة والإشاعة. وهذا أمر عاشته البشرية خلال كثير من الأوبئة السابقة؛ حيث تتحدث نصوص بلاد ما بين الرافدين عن استمتاع الآلهة بنشر الأوبئة على الأرض. وفي المقابل تُلقي نصوص أبوقراط اللوم في تفشي وباء التيفوس باليونان في القرن الخامس قبل الميلاد على متسببي تلويث الهواء والماء والطعام بالميكروبات. وقد عملت الحضارة اليهودية المسيحية من جهتها على تقديم تفسير أكثر أخلاقية للأوبئة، بدعوى أن الله يتخذ من الموت بفعل الوباء العقاب المستحق لكل مقبل على الخطيئة والعصيان. وفي العصور الوسطى كان السائد عدم الثقة في الطب لأنه يمثل عقبة أمام الإرادة الإلاهية في تدنيس الجسد بالمرض والوباء (Blaise, 2020).

في نفس السياق، ورغم انتصار عقيدة باستور Pasteur الميكروبيولوجية المبنية على الملاحظة والتجريب والاستدلال في نهاية القرن 19؛ بحيث سيتوقف الأطباء عن النظر إلى الخوف كسبب محتمل للمرض والوفاة، فإن التفسير الغيبي غير العقلاني سيبقى صامدا لينتعش من جديد مع انتشار مشاعر الخوف والهلع نتيجة بعض الأوبئة التي عرفتها ثمانينيات القرن العشرين. وهو أمر يصدق في حالة جائحة كوفي-19 الحالية التي أصبحت تجتاح العالم طولا وعرضا؛ بحيث أنه وبفعل الشك في قدرة العلم والعلماء على اكتشاف الدواء واللقاح الناجعين، أصبحنا مجددا أمام ممارسات وسلوكيات تغذيها وصفات تتراوح بين نزعات عقدية دينية، وبين تفسيرات غيبية أسطورية، ثم بين تأويلات غارقة في الدجل والخرافة. وهذه مسألة توضحها السلطة العقدية التي يمارسها بعض رجالات الدين أصحاب الغلو والتطرف على مورديهم وأتباعهم بدعوتهم إلى التمرد على فيروس كورونا ومجابهته بطقوس دينية تارة وممارسات غيبية تارة ووصفات عشبية تارة أخرى. فتبعا لبعض متطرفي مشايخ وقساوسة وحاخامات الديانات الثلاث، فهذا الفيروس لا يصيب لا المسيحيين ولا اليهود ولا المسلمين. وهذه مسألة تؤكد عليها مضامين عديد من الأشرطة والفيديوهات والرسائل التي أضحت منصات التواصل الاجتماعي بمختلف وسائلها وأشكالها تعج بها وتعرضها بشكل مكثف ومتواصل في هذه الأيام العصيبة. وهي عبارة عن دعوات وخطابات ووصفات عجيبة وغريبة، غايتها القصوى العمل على تطويق هذا الوباء الذي استعصى علاجه حتى الآن على أشهر مختبرات العالم وأجود علماء المعمور.

الحقيقة أن سرعة انتشار وتفشي فيروس كورونا كان لابد وأن يؤدي بهؤلاء إلى مثل هذه الممارسات، بل الأكثر إلى البحث عن كبش فداء لزرع مزيد من الشك والارتياب في نفوس ساكنة الهوامش والنسيج الاجتماعي الهش تجاه العلم والعلماء. فغايتهم الوحيدة للإقناع والتفسير تتحدد في اتخاذ إجراءات الحجر الصحي ومنع المخالطة والعناق والمصافحة ثم طقوس الجنازة والدفن المألوفة، كمطية للرفع من منسوب اللاوثوقية في العلم والعلماء، رغم الدور الوازن الذي صار علماء ومهنيو الصحة الجسدية والنفسية يقومون به في هذا النطاق.

إذن، فبعدما ظن العالم وخاصة في بلدانه المتقدمة أن ملف الأمراض والأوبئة المعدية قد طوي مع

فوثوقية العلم لا يجب أن تشرطها لا أوهام الخيال العلمي، ولا تخيلات التفكير الخرافي، ولا تنبؤات التنجيم الغيبي، بل إن يقينيته النسبية، وليست المطلقة كما يعتقد الكثيرون، مشروطة أولا وأخيرا بمستوى واقعية مخرجاته ونجاعة نتائجه في خدمة الإنسان في علاقته بوجوده الذاتي المحلي وبوجوده الكوكبي الكوني

إن المعارف الساذجة المتشبعة بالحدوس المشتركة والعادات الشعبية والأساطير الخرافية، غالبا ما يقبلها الفرد كما هي دون أي تقييم لمحتوياتها ولتقنيات إنتاجها. فهي عادة ما تتميز بنزعة التجذر والمقاومة والاستمرار حتى وإن كانت وقائع الملاحظة تكذبها أو تشكك فيها

المعارف العلمية التي وإن كانت تتميز بالشمولية والاستمرارية فإن نزعاتها ونظرياتها وبراديغماتها تشكل على الدوام مواد ومواضيع للتأمل والتقييم إما بهدف التطوير والتجويد وإما بغرض القطيعة والتجاوز

فمتى تعذر شرح ما لا يمكن تفسيره بالعلم والمنطق، إلا وتم التوسل في شرحه (خصوصا للعامة من الناس) إلى الغيب والخرافة والإشاعة.

وفي العصور الوسطى كان السائد عدم الثقة في الطب لأنه يمثل عقبة أمام الإرادة الإلاهية في تدنيس الجسد بالمرض والوباء

أواخر القرن الماضي وبدون رجعة، فقد عرف منذ ذلك الحين أوبئة عديدة من أبرزها الإيدز وأنفلونزا الطيور وإيبولا وجنون البقر وحاليا كوفيد-19. وهذا ما يفند كل تلك الظنون ليؤشر على أن الهجمات الوبائية التي اعتقد الكثيرون أنها اختفت إلى غير رجعة، ستتكاثر وتتقوى بفعل تدخل الإنسان في الطبيعة وتلويثها. فالأكيد أن الملايين من الأرواح وبالخصوص في المناطق الفقيرة والمتخلفة من العالم ستزهق أو ستشرد، لأن العلاجات واللقاحات المقبلة، إن كانت هناك فعلا علاجات ولقاحات، ستكون من منظور أغلب المتخصصين في الموضوع جد مكلفة، ولن ينعم بها سوى أغنياء ومحظوظي هذا العالم الذي صار يوما بعد يوم يفقد مناعته الصحية وكرامته الإنسانية وتوازناته الاجتماعية (Blaise, 2020).

رهاب جائحة كفيد-19 في ظل المقاربة النفسية

أكيد أنه خلال حالات الخوف الجماعي التي عاشتها البشرية على مر تاريخ الأوبئة المختلفة، فإن الخوف الفردي من أي شيء لا يمكنه إلا أن يتغذى من الخوف الجماعي للآخرين والعكس بالعكس. ففي حالة جائحة كوفيد-19 الحالية يبدو أن هذه المعادلة حاضرة بقوة نتيجة المنسوب القوي والسريع للمعلومات والأخبار الفاقدة للمصداقية أحيانا، التي تنشرها وسائل الإعلام والاتصال المتنوعة بما فيها شبكات التواصل الاجتماعي. فحسب كثير من المتخصصين في علوم النفس والتواصل والذكاء الاصطناعي، فإن هذه الشبكات التي لم يسبق لها أن تواجدت خلال جائحة بهذا الحجم، هي التي تسرع من ظاهرة عدوى الرهاب الجماعي والفردي على حد سواء. فصور الطابورات الطويلة والرفوف الفارغة والمستشفيات المكتظة وطواقم الأطباء المنهكة، وفيديوهات ورسائل الترهيب والتخويف والإشاعات المغرضة التي تعج بها هذه الشبكات إلى حدود التخمة، كلها تشكل مادة خصبة لزرع مشاعر الخوف والهلع، وإثارة عواصف من الانفعال والقلق، والرفع من وتيرة الاستجابات وردود الأفعال الآلية غير المراقبة. فحينما تصبح مثل هذه الصور والفيديوهات هي الأكثر استهلاكا ومشاهدة بغض النظر عن مدى واقعيتها، فمن الطبيعي أن يتفاعل معها أغلب المشاهدين من خلال الاعتقاد أن ما تبثه وتعرضه من ممارسات وسلوكيات يمثل الشيء الصحيح الذي يجب القيام به.

وهذه مسألة أصبحت محسومة في المقاربة المعرفية للظواهر النفسية والاجتماعية؛ بحيث حينما لا يعرف الفرد كيف يتفاعل مع المواقف التي لم يألفها، مثلما هو الحال بالنسبة لمستجدات وتداعيات جائحة كوفيد-19، فإنه يستنجد الدعم والتوجيه أو يتماهى مع ما يفعله الآخرون. فإذا كنت في فضاء للتسوق ورأيت بالصدفة الزبائن يكثرون من اقتناء أنواع من البضاعة، فالراجح أنك قد تفعل بشكل تلقائي ارتكاسي الشيء نفسه دون أن تفكر في العواقب أو أن تتأمل الأمر لتتحقق مما إذا كان الشيء الذي قمت به لا يشكل بالضرورة الشيء الصحيح الذي يجب القيام به.

السؤال المطروح إذن يتلخص في كيف ينظر العلم في بعده السيكولوجي إلى ممارسات وسلوكيات الأفراد والجماعات تجاه كوفيد-19؟ ما هي مبرراته التفسيرية لنوبات الهلع والقلق التي تحل بالبعض في مقابل لحظات الهدوء والسكينة التي يعيشها آخرون؟ في محاولة تقديم إجابة أولية بهذا الخصوص، يمكن الافتراض بأن الانزياح المعرفي biais cognitif لجزء من ساكنة العالم نحو التفاؤل يمكنه أن يشكل أسلوبا مفيدا لتهدئة هلعهم وتوترهم. فهم يعتقدون بأنهم أقل عرضة لعدوى هذا الفيروس إما لصغر سنهم أو لمناعتهم القوية أو لاحتياطاتهم المكثفة في النظافة والتغذية والعزل الصحي. وفي المقابل فإن الانزياح المعرفي لجزء آخر من تلك الساكنة نحو التشاؤم يمكنه أن يمثل أسلوبا مساعدا على ترويعهم والرفع من توترهم إلى حد الظن بأن التقدم في السن وقلة المناعة ستحكم عليهم بالإصابة بهذا الفيروس

إن التفسير الغيبي غير العقلاني سيبقى صامدا لينتعش من جديد مع انتشار مشاعر الخوف والهلع نتيجة بعض الأوبئة التي عرفتها ثمانينيات القرن العشرين. وهو أمر يصدق في حالة جائحة كوفيد-19 الحالية التي أصبحت تجتاح العالم طولا وعرضا

أن الهجمات الوبائية التي اعتقد الكثيرون أنها اختفت إلى غير رجعة، ستتكاثر وتتقوى بفعل تدخل الإنسان في الطبيعة وتلويثها

أن الملايين من الأرواح وبالخصوص في المناطق الفقيرة والمتخلفة من العالم ستزهق أو ستشرد، لأن العلاجات واللقاحات المقبلة

إن الخوف الفردي من أي شيء لا يمكنه إلا أن يتغذى من الخوف الجماعي للآخرين والعكس بالعكس

في حالة جائحة كوفيد-19 الحالية يبدو أن هذه المعادلة حاضرة بقوة نتيجة المنسوب القوي والسريع للمعلومات والأخبار الفاقدة للمصداقية أحيانا، التي تنشرها وسائل الإعلام والاتصال المتنوعة بما فيها شبكات التواصل الاجتماعي

إن هذه الشبكات التي لم يسبق لها أن تواجدت خلال جائحة بهذا الحجم، هي التي تسرع من ظاهرة عدوى الرهاب الجماعي والفردي على حد سواء

وبالموت حتما بالرغم من كل المحاذير والاحتياطات المختلفة (Laurent, 2020).

ومن منظور سيكولوجية المواجهة Psychologie du coping التي نتبناها في التعامل مع هكذا ظواهر، فإن نفس هذا الانزياح نحو التفاؤل ظهر أثناء الأزمة المالية العالمية لعام 2008؛ إذ اعتقد كثير من رجال المال والأعمال والاقتصاد والسياسة أن الوضع يمكنه أن يصمد أمام الأزمة في تجاهل تام لمعطيات ومؤشرات تفشيها وتداعياتها الوخيمة. فهذا الوهم المعرفي الذي قد يغطي 80٪ من ساكنة العالم بمختلف بلدانها وجميع أعمارها، هو الذي يقودها في اعتقادنا الشخصي إلى التقليل من احتمالات التعرض للكوارث والأوبئة كما هو الحال في جائحة كوفيد-19. وهو وهْمٌ يشكل في الآن نفسه وَجِيهَةً تجمع بين خاصية خطورة إيجابية الأفكار والأحكام تجاه تلك الكوارث والأوبئة لدى أصحاب الانزياح المتفائل، وخاصية أريحية سلبية الأفكار والأحكام تجاه نفس الكوارث والأوبئة لدى أصحاب الانزياح المتشائم (Charlotte, 2011).

ففي حالة وباء كورونا الذي يعيشه العالم حاليا، فإن الانزياح نحو التفاؤل، من ضمن عوامل أخرى، يمكنه أن يفسر على أساس أن جزءًا من الساكنة لا تتمثل ولا تقيم خطورة الوباء بالشكل المطلوب، أو أن شحناتها الانفعالية الداخلية وظروفها المادية المعيشية تحكم عليها بصعوبة الامتثال لتدابير الوقاية والحذر والعزل والاحتواء. ولكي نوضح المسألة بصورة أعمق، فإن وسائل الإعلام بمختلف منابرها وفي شتى أقطار المعمور، بقدر ما تعج بأخبار ومعلومات تؤكد على خطورة الوباء الحالي وفداحة تداعياته، فقد اتضح من دراسات في سيكولوجية المخاطر أنجزت على عجل في الأيام الأخيرة في مناطق مختلفة من العالم، أن غالبية المستجوبين يغمرهم تفاؤل كبير بشأن التقليل من خطر الإصابة بالعدوى. لكن الملاحظ أنه مع كثافة انتشار الفيروس وصرامة الإجراءات المتخذة للحد من تفشيه، أصبح التفاؤل القوي يتراجع بنسبة دالة ولم يعد يقوى أمام منسوب التشاؤم السريع بفعل الحجم الهائل للخسائر في الأرواح والاقتصاد والخدمات التي تداوم المنابر السابقة الذكر على بثها بشكل مفرط وممل في كثير من الأحيان. فقد ارتفع منسوب القلق والخوف من الإصابة بالعدوى لدى أكثر من 70% من ساكنة العالم. وبالتالي فمتي كان سبب الوباء عبارة عن فيروس – لغز فجائي يلفه الغموض من حيث أصله ومصدره ودواؤه ولقاحه، إلا وكانت ردود أفعال نسبة كبيرة من الناس محملة بمخاوف وتوترات تتزايد حدتها مع مرور الوقت، وتتضاعف كلفتها الصحية جسديا ونفسيا. وفي المقابل يكون العكس هو الصحيح بالنسبة للحوادث المألوفة والمخاطر المعروفة الأسباب والعواقب، وفي مقدمتها حوادث السير والسكتات القلبية وأمراض السرطان والسكري والتدخين التي تحصد مئات الآلاف من الأرواح يوميا عبر العالم دون أن تصاحبها نوبات الفوبيا العارمة التي تعيشها أغلب ساكنة العالم هذه الأيام بفعل كوفيد-19.

جائحةكوفيد-19 في ظل الممارسة النفسية بالمغرب

إن المغرب الذي يعيش هذه الأيام في عزلة ذاتية، شأنه في ذلك شأن ما يقارب نصف ساكنة العالم، للاحتماء من عدوى فيروس كورونا، قد اتخذ في وقت مبكر إجراءات صارمة ومكلفة من قبيل: إغلاق الحدود مع أغلب دول العالم، العزل المنزلي فضلا عن الحجر الصحي، منع التنقل بين المدن والبوادي، ضبط ومراقبة التجول نهارا ومنعه ليلا، ثم نزول السلطات الأمنية بمختلف مكوناتها إلى الشوارع في معظم المدن والقرى، وبالتالي الانخراط في أكثر عملية عزل قسري وحصار طوعي على مر تاريخه الممتد لما يقارب 14 قرنا.

فحينما تصبح مثل هذه الصور والفيديوهات هي الأكثر استهلاكا ومشاهدة بغض النظر عن مدى واقعيتها، فمن الطبيعي أن يتفاعل معها أغلب المشاهدين من خلال الاعتقاد أن ما تبثه وتعرضه من ممارسات وسلوكيات يمثل الشيء الصحيح الذي يجب القيام به.

حينما لا يعرف الفرد كيف يتفاعل مع المواقف التي لم يألفها، مثلما هو الحال بالنسبة لمستجدات وتداعيات جائحة كوفيد-19، فإنه يستنجد الدعم والتوجيه أو يتماهى مع ما يفعله الآخرون

السؤال المطروح إذن يتلخص في كيف ينظر العلم في بعده السيكولوجي إلى ممارسات وسلوكيات الأفراد والجماعات تجاه كوفيد-19؟ ما هي مبرراته التفسيرية لنوبات الهلع والقلق التي تحل بالبعض في مقابل لحظات الهدوء والسكينة التي يعيشها آخرون؟

أن الانزياح المعرفي biais cognitif لجزء من ساكنة العالم نحو التفاؤل يمكنه أن يشكل أسلوبا مفيدا لتهدئة هلعهم وتوترهم. فهم يعتقدون بأنهم أقل عرضة لعدوى هذا الفيروس إما لصغر سنهم أو لمناعتهم القوية أو لاحتياطاتهم المكثفة في النظافة والتغذية والعزل الصحي

إن الانزياح المعرفي لجزء آخر من تلك الساكنة نحو التشاؤم يمكنه أن يمثل أسلوبا مساعدا على

ولعل أهم مقومات أسلوب تعامل المغرب مع هذه الجائحة منذ حلول فيروسها اللغز ضيفا شبحا قادما من الخارج في أوائل شهر مارس الماضي، هو نجاحه الواضح في تعبئة جبهته الوطنية وتحصينها عبر تقوية انتمائها الوطني وتعزيز رابطها الاجتماعي وتفعيل قيم التضامن والتكافل والمسؤولية والالتزام. فقد تميز أسلوب التعامل هذا بتعبئة وطنية دينامية وشاملة لأغلب الطاقات والكفاءات والموارد المادية والبشرية التي تزخر بها ربوع الوطن وجهاته المختلفة. فماعدا بعض الخروقات القليلة للعزل الصحي المتحكم فيها، فالكل أصبح معبأ للإبحار بسفينة المغرب والمغاربة بشتى فئاتهم العمرية والجغرافية والاجتماعية إلى بر الأمان، وبالتالي الخروج من هذه الأزمة بأقل الخسائر والأضرار وخصوصا في الأرواح.

في محاولة تقييم مكانة ودور علم النفس في مواجهة بعض تداعيات هذه الجائحة فإن أهم خلاصة مؤقتة يمكن التأكيد عليها هي أن هذا العلم يعتبر إلي جانب علوم الطب والذكاء الاصطناعي والتواصل والمعلوميات، التخصص المعرفي الأكثر بروزا خلال ظهور هذا الوباء في المغرب. فقد حقق على مستوى الإشعاع والممارسة خلال هذه المدة الوجيزة ما لم يحققه على امتداد ما يقارب عقدين من الزمن من استقلاله كتخصص قائم الذات. فبفعل مساهمات كثير من باحثيه وأخصائييه وممارسيه على مستوى مواكبة الصحة النفسية للمغاربة المصابين وغير المصابين قبل العزل الصحي وأثناءه وأكيد بعده، إما بالإنصات والاستشارة والتوجيه، وإما بالدعم والتدخل والمرافقة عبر مختلف وسائل الاتصال والإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية وشبكات التواصل الاجتماعي، أصبح هذا العلم يقوم فعلا بوظيفته التطبيقية التي لطالما كان منزوعا منها ويفتقدها قبل حلول جائحة كوفيد-19 بالمغرب.

إذن فبعدما كان علم النفس وإلى عهد قريب يقبع في برجه العاجي داخل أسوار الجامعة، مكتفيا بالتدريس والبحث الأكاديمي، بعيدا عن الانفتاح على مشاكل المغاربة وصحتهم النفسية والعقلية إلا فيما نذر، أصبح اليوم وفي مدة قياسية يجاري من حيث مكانته علوم الطب والهندسة والذكاء الاصطناعي والمعلوميات والتواصل التي يتقاسم مع كثير منها حقل ما يسمى بالعلوم المعرفية. وبتعبير أوضح فإن هذا العلم الذي لم تكن ممارسته التطبيقية تتجاوز بعض المساهمات المحتشمة إما داخل الفضاء الجامعي وإما في بعض المؤسسات الصحية والأمنية والعدلية المحدودة، وذلك بفعل أولا سيادة الأنماط الثقافية والتمثلات الاجتماعية المقاومة لخدماته، وثانيا تهميشه على صعيد التثمين المؤسساتي وتقديم الخبرة والاستشارة النفسية، صار في زمن كوفيد-19 يصدق عليه القول المأثور"وربَّ ضارة نافعة" ليقوم بدور كبير في حماية صحة المغاربة النفسية من تداعيات هذه الجائحة، على الرغم من أن أغلب ممارسيه ممن يعملون خارج أسوار الجامعة ومراكز وعيادات الطب النفسي، لا زالوا يفتقرون إلى القانون الذي ينظم ويحمي مهنة عالم النفس. والحقيقة أن تمكين هؤلاء الذين يقدر عددهم بما يقارب 150 ممارس، من قانون ينظم مهنتهم ويحميهم من كل شطط أو تطاول على التخصص من قبل بعض الدخلاء والطفيليين الذين كانوا ولا زالوا يستغلون فراغ غياب هذا القانون لينخرطوا في ممارسات شعبوية وخرافية يعبثون فيها بصحة المغاربة النفسية ويستصغرون وعيهم ويستنزفون أرزاقهم، أصبح من الإجراءات الواجب حسمها من لدن الجهات المختصة. فبهكذا إجراء ستتقعّد المهنة وستتبدّى فوضى الممارسة النفسية بالمغرب؛ إذ سيعرف كل أخصائي وكل ممارس سيكولوجي ما له وما عليه، وبالتالي ستتوقف طواحين الهواء عن الدوران والعبث وستعود خفافيش الليل إلى دهاليزها المظلمة لتصمت وتنام إلى غير رجعة.

تبعا لما تقدم يمكن التسليم بأن علم النفس بالمغرب، وبالرغم من بعض مظاهر التطور التي حققها في

ترويعهم والرفع من توترهم إلى حد الظن بأن التقدم في السن وقلة المناعة ستحكم عليهم بالإصابة بهذا الفيروس وبالموت حتما بالرغم من كل المحاذير والاحتياطات المختلفة

ففي حالة وباء كورونا الذي يعيشه العالم حاليا، فإن الانزياح نحو التفاؤل، من ضمن عوامل أخرى، يمكنه أن يفسر على أساس أن جزءًا من الساكنة لا تتمثل ولا تقيم خطورة الوباء بالشكل المطلوب، أو أن شحناتها الانفعالية الداخلية وظروفها المادية المعيشية تحكم عليها بصعوبة الامتثال لتدابير الوقاية والحذر والعزل والاحتواء

مع كثافة انتشار الفيروس وصرامة الإجراءات المتخذة للحد من تفشيه، أصبح التفاؤل القوي يتراجع بنسبة دالة ولم يعد يقوى أمام منسوب التشاؤم السريع بفعل الحجم الهائل للخسائر في الأرواح والاقتصاد والخدمات التي تداوم المنابر السابقة الذكر على بثها بشكل مفرط ومعمل في كثير من الأحيان.

ارتفع منسوب القلق والخوف من الإصابة بالعدوى لدى أكثر من 70% من ساكنة العالم

أهم مقومات أسلوب تعامل المغرب مع هذه الجائحة منذ حلول فيروسها اللغز ضيفا شبحا قادما من الخارج في أوائل شهر مارس الماضي، هو نجاحه الواضح في تعبئة جبهته الوطنية وتحصينها عبر تقوية انتمائها الوطني وتعزيز رابطها الاجتماعي وتفعيل قيم التضامن والتكافل والمسؤولية والالتزام.

السنوات الأخيرة والتي مكنته حاليا من المساهمة الفعلية في مواجهة بعض تداعيات جائحة كوفيد- 19 النفسية، فهو لا يزال يتخبط في مشاكل توطينه ومأسسته، تكوينا وبحثا وممارسة. ونعتقد أن تجاوز هذا الوضع ومختلف أساليب المقاومة التي يسلكها البعض للإبقاء على واقع الحال كما هو عليه، يستدعي استعجالية العمل بالإجراءات الأربعة التالية (أحرشاو، 2020 ج):

- توسيع قاعدة السيكولوجيا عندنا لتشمل كل الجامعات والكليات والمعاهد كشعبة قائمة الذات، وليس كمسلك يفتقد إلى الشروط البنيوية والتأطيرية والبحثية للتخصص الفعلي، أو كوحدات تكميلية تُدَرَّسُ ضمن مسالك تخصصات أخرى؛

- تعزيز وتمتين الهوية العلمية لعلم النفس بالمغرب عبر تقوية تشبُّعه بالتخصصات البيولوجية الطبية والعصبية المعرفية والمرضية العيادية، تكوينا وبحثا وإنتاجا وممارسة؛

- الخروج بمنظومة علم النفس البحثية من داخل أسوار الجامعات لمقاربة مشاكل المغاربة الحقيقية في مختلف مستوياتها وتمظهراتها المعرفية والوجدانية، الفطرية والمكتسبة، السوية والشاذة، التعلمية والمهنية، الصحية والأمنية وغيرها.

- اعتبار علم النفس مثله مثل الطب، يجب أن يمارس أينما وجد الإنسان: في البيوت والمدارس، في المستشفيات والمصحات، في الشركات والمقاولات، في مؤسسات الأمن والعدل، باعتماد بروتوكولات للتشخيص والعلاج والتكفل، وخطط للانتقاء والتوجيه والإرشاد، ومكاتب للخبرة والاستشارة والتدخل في مختلف قضايا تنمية الإنسان وتحديث المجتمع.

في نهاية هذا المقال الذي حاولنا من خلال مضامينه توضيح ما حصل وما هو حاصل وما سيحصل في المستقبل جراء تداعيات جائحة كوفيد-19، نرى ضرورة التنصيص على الخلاصات الثلاث التالية:

- إن الحل المأمول لعودة الحياة إلى طبيعتها والقضاء على هذا الفيروس العابر للحدود، يكمن حسب الاعتقاد السائد الذي بدأت معالمه الأولى تتبلور في كثير من دول العالم، في تحصين شامل وعام عبر تطوير لقاح ناجع قوامه توفير نوع من المناعة الجماعية العالمية بدل الاكتفاء بنوع من المناعة الوطنية بالنسبة لكل بلد أو قطر.

- لزومية منح الأولوية للاستثمار في منظومة البحث العلمي، والابتكار في المجال الطبي والاستشفائي، ثم مجتمع المعرفة والاقتصاد الرقمي، كتفاعل إيجابي مع الأسئلة الكبيرة التي أصبحت تطرح نفسها بخصوص دور العلوم والعلماء في مواجهة تداعيات مثل هذه الجائحة حاضرا ومستقبلا، وبالتالي صَوْنُ المصير المشترك للإنسانية جمعاء وتقوية عروتها وناصيتها في الوجود والتواجد الكوني الآمن المعافى.

- ضرورة استغلال مناسبة هذه الجائحة لبناء وعي كوني شامل ودائم، قوامه العمل على توظيف وتسخير قيم العلم والتعلم، العمل والتنقل، التواد والمحبة، التواصل والصداقة، التعاون والتكافل، وهي كلها نعم وجودية وحقائق إنسانية تمنح للحياة طعمها اللذيذ، لما يخدم رفاه

في محاولة تقييم مكانة ودور علم النفس في مواجهة بعض تداعيات هذه الجائحة فإن أهم خلاصة مؤقتة يمكن التأكيد عليها هي أن هذا العلم يعتبر إلى جانب علوم الطب والذكاء الاصطناعي والتواصل والمعلوميات، التخصص المعرفي الأكثر بروزا خلال ظهور هذا الوباء في المغرب

أصبح هذا العلم يقوم فعلا بوظيفته التطبيقية التي لطالما كان منزوعا منها ويفتقدها قبل حلول جائحة كوفيد-19 بالمغرب.

بعدما كان علم النفس وإلى عهد قريب يقبع في برجه العاجي داخل أسوار الجامعة، مكتفيا بالتدريس والبحث الأكاديمي، بعيدا عن الانفتاح على مشاكل المغاربة وصحتهم النفسية والعقلية إلا فيما نذر، أصبح اليوم وفي مدة قياسية يجاري من حيث مكانته علوم الطب والهندسة والذكاء الاصطناعي والمعلوميات والتواصل التي يتقاسم مع كثير منها حقل ما يسمى بالعلوم المعرفية.

يمكن التسليم بأن علم النفس بالمغرب، وبالرغم من بعض مظاهر التطور التي حققها في السنوات الأخيرة والتي مكنته حاليا من المساهمة الفعلية في مواجهة بعض تداعيات جائحة كوفيد- 19 النفسية، فهو لا يزال يتخبط في مشاكل توطينه ومأسسته، تكوينا وبحثا وممارسة.

الخروج بمنظومة علم النفس

الإنسان ورقيه دون إلحاق الضرر بالأرض والطبيعة.

البحثية من داخل أسوار الجامعات لمقاربة مشاكل المغاربة الحقيقية في مختلف مستوياتها وتمظهراتها المعرفية والوجدانية، الفطرية والمكتسبة، السوية والشاذة، التعلمية والمهنية، الصحية والأمنية وغيرها.

اختبار علم النفس مثله مثل الطب، يجب أن يمارس أينما وجد الإنسان: في البيوت والمدارس، في المستشفيات والمصحات، في الشركات والمقاولات، في مؤسسات الأمن والعدل

لزومية منح الأولوية للاستثمار في منظومة البحث العلمي، والابتكار في المجال الطبي والاستشفائي، ثم مجتمع المعرفة والاقتصاد الرقمي

ضرورة استغلال مناسبة هذه الجائحة لبناء وعي كوني شامل ودائم، قوامه العمل على توظيف وتسخير قيم العلم والتعلم، العمل والتنقل، التواد والمحبة، التواصل والصداقة، التعاون والتكافل

مراجع

الغالي، أحرشاو. (2020 أ). هذه هي استراتيجيات مواجهة جائحة كوفيد-19. الرباط: موقع شبكة هيسبريس للأخبار ، أبريل 2020.

الغالي، أحرشاو. (2020ب). جائحة كوفيد-19 وسيكولوجية التدخل والمواجهة. تونس: موقع شبكة العلوم النفسية العربية على الفايسبوك، أبريل 2020.

الغالي، أحرشاو. (2020 ج). السيكولوجيا بالمغرب في ظل أربعة عقود من البحث والممارسة. تونس: مجلة بصائر نفسانية، العدد 27 شتاء 2020.

الغالي، أحرشاو. (2017). البحث العلمي في العلوم الإنسانية: الهندسة، الإنجاز، الإخراج. الرباط: مطبعة نوجوص خدمات. nogoce services.

Blaise, M . (2020). une brève histoire des épidémies. *Article paru dans le numéro 7 d'Usbek & Rica*. 23/03/2020.

Charlotte, T.(2011). Le biais d'optimisme. Usbek & Ri

Laurent, A. (2020). Comment les sciences expliquent nos réactions face au coronavirus, Usbek & Rica .

Edgar, M. (2020 a). « Le confinement peut nous aider à commencer une détoxification de notre mode de vie », entretien de Le Bailly, D et Courage, C, Publié le 18 mars 2020 : L'OBS Soceté Santé.

Edgar, M. (2020 b). Nous devons vivre avec l'incertitude. Entretien de lecompte, F , Publié par CNRS Le Journal : le 06 Avril 2020.

إرتباط كامل النص:
http://www.arabpsynet.com/Documents/DocAharchaou-Sc&ScholarsCovidPandemic.pdf

*** *** ***

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقيا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي
http://www.arabpsynet.com/

المتجر الالكتروني
http://www.arabpsyfound.com

الكتاب السنوي 2020 لـ " شبكة العلوم النفسية العربية " (الاصدار السادس)

الشبكة تطفئ شمعتها التاسعة عشرة وتدخل عامها العشرون من التأسيس

19 عاما من الكدح... 17 عاما من التواصل "

http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf